من كتب الشرق والغرب

نشر النصـــوص

منذ أربعة قرون أنشأ البابا غريغوريوس فى رومة مدرسة لدراسة النصوص العربية ، يختلف إليها رجال الدين يقرءون فى رقاع قديمة بالية ، وبين أيديهم مقاييس للمساحة يختلفون حينا ويتفقون حينا ، فينقاد إليهم الفهم صاغراً طوراً ، وينصرف عنهم غاضباً طوراً . وما هو إلا أن يعودوا إلى النصوص اللاتينية ينظرون كيف تنشر وكيف تقوم حتى يعملوا للعربية ما عمل زملاؤهم للاتينية سواء بسواء . ولم تنفرد رومة وحدها فى هذا وإنما تبعتها باريس وفينة وغيرها من عواصم الغرب ، فأخرجت كتبنا العربية فى تحقيق علمى ونشر صحيح . وبين أيدينا « تاريخ ابن العميد[١] » و « كتاب تيمورلنك لابن عربشاه[٢] » و « أمثال لقمان[٣] » ... ... وغيرها من كتبنا نقرأ التعليقات فيها والحواشى والمقدمات والخواتيم فندرك دقة العمل وما عرض له العاملون .

ونستطيع فى كثير من اليسر أن نفهم سبيلهم ذاك ؛ فقد وصفه العلماء بعدهم ، ووقفوا له الكتب ، وأنشئوا له المحاضرات والدروس ، وخصوه بشهادات معينة يقضى لها الغربى سنوات فى مدرسة الآثار، والدراسات العليا ، وقراءة الكتابات القديمة La Paléographie[٤] .

فمنهم من يعنى بقراءة النصوص على الحجر ، ومنهم من يأخذ نفسه بقراءتها على الأقمشة ، ومنهم من ينظر إليها فى الكتب والأوراق . وكلهم متفقون فى أن النص جسم ذو روح يحيا ويموت ويبعث . فاذا بتر منه عضو أو قطع منه عضو استعاده العالم كما كان قبل البتر أو القطع . ونظرة واحدة إلى ما تنشر المعاهد الأجنبية بيننا من كتابات على القبور والمساجد والمحاريب فى مجلدات ضخمة متعددة ترشدنا إلى أن هذا العلم قد أخذ حظه من نفوسهم واستمكن من عقولهم[٥]

(١) « تاريخ المسلمين للشيخ المكين» طبع مع ترجمة إلى اللاتينية بعناية إربانيوس Erpenius فى ليدن ١٦٢٥ .

(٢) « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » لابن عربشاه الدمشقى ، تصحيح غوليوس Jacob Gollius فى ليدن ١٦٣٦ .

(٣) « أمثال لقمان» طبع فى ليدن بعناية اربانيوس عام ١٦٥٦ .

(٤) للتوسع فى هذه المادة اقرأ : Sylvestre, *Paléographie Universelle*, Paris 1839-1841.

Chassinat, *Paléographie des chartes et des manuscrits du XIe au XVIIe siècle*, Paris 1841

(٥) أخص بالذكر ما نشر فى مصر عن الكتابات العربية فى عدة أجزاء كبيرة :

Van Berchem, *Matériaux pour un Corpus inscriptionum arabicarum*, Le Caire, IFAO, 1922...

Combe, Sauvaget et Wiet, *Répertoire Chronologique d'épigraphie Arabe*, Le Caire, IFAO, 1931, 13t.

وإنى لأذكر فى كثير من العجب هذه المحاضرات العملية التى استمعت إليها فى باريس، وبرلين، وليبزيغ (١) وقد نشر المحاضر بين مستمعيه صوراً لقبر قديم أو لبساط أثرى، وراح الطلبة يقيسون المقدار المخروم والمقدار المتبقى فى الكتابة وينشئون من جديد رسما للألفباء التى استعملها الكاتب فى تصوير الواو أو الفاء أو الياء مثلا، ثم يطبقون ذلك على السطور التى بين أيديهم، فاذا هم يقرءون النص بمقاييسهم العلمية، وإذا نحن نعمد إلى التخمين أو الظن فنرجع إلى محفوظاتنا فى آية استشهد بها الكاتب أو حديث اعتمد عليه المؤلف، فربما أصبنا وربما أخفقنا؛ ونحن فى كلا الحالين لا نعتمد على علم وإنما على ما يشبه الايمان بقوتنا وقدرتنا فى العربية. وشأننا فى نشر الكتب والمخطوطات معهم كشأننا فى قراءة سطر أو سطور. فهم حين يهمون بنشر كتاب من الكتب يبحثون أول ما يبحثون عن حياة المؤلف وعن الأوساط التى قرأت له وانتصرت لمذهبه فى الأقطار العربية، ويذهبون فى البحث وراء المخطوطات التى انتقلت من هذه الربوع إلى مكتبات أوربة فيرسمون سبيل تنقلها وشجرة نسبها حتى تظهر لأعينهم أم النسخ وبناتها وقريباتها كما بحث أجدادنا العرب فى الأنساب والاسناد سواء بسواء.

وهم إذ يتأكدون بعد الفحص الدقيق من قرابة بين النسخ ونسب يرسمون جدولا يبينون به هذه القرابة وهذا النسب، وذلك بأن تزيد طائفة منها كلمات فى التشيع مثلا لمذهب أو لحزب، أو تحذف كلمات من هذا التشيع، أو تشتد فى التعصب للمؤلف أو تغلو فى التعصب عليه بالحذف والاضافة. ودليل الباحثين فى ذلك كله موطن الناسخ وتاريخ عصره ومذهبه بالنسبة إلى المؤلف. فاذا غاب أكثر هذا فالورق جسم ذو روح ـ كما قدمنا ـ يدل على حياته باللون أو الغلظ والكثافة، ويدل المداد على قدمه، وتدل الكتابة على موطنها من أقطار العربية. وهكذا يحيا الناشر عاماً أو عامين أو أعواما يسائل عن أصل النص وأمه وعشيرته. فاذا تبين له الأصل والفرع شرع فى استقصاء التقارب بينها، فيرد النص كما كان فى حياة المؤلف على وجه التقريب وهو يرسم قاموساً لمفردات العصر، ومرجعاً لاختلاف المعانى، فيحدد معلوماته عن القرن نفسه وبيئة المؤلف ذاتها، فيعزل عن النص ما أضاف إليه الناسخ المتأخر، ويسنت فيما لا يجد لاثباته نصا واضحاً.

هذا هو النشر العلمى (٢) L'Edition critique درجت عليه مدارس الاستشراق منذ أربعة قرون فأخرج أصحابها كثيراً من كتبنا كما أخرج زملاؤهم فى اللاتينية واليونانية أو اللغات الأوربية القديمة.

وأكبر الظن أن الناشرين فى البلاد

(١) رأيت منذ أشهر خلال إقامتى بدير الآباء فى «به يرون» Beuron بألمانيا، ما يقوم به العالم الأب آبل Pater Abel من قراءة نصين كتب أحدهما فوق الآخر، فهو يزيل الكتابة المتأخرة بنوع من المداد فى فحص دقيق وتحضير واسع بحيث لا يمس الكتابة الثانية، ويقرأ كلا من الكتابتين بعد تصويرهما، فيستفيد منهما معاً، وخاصة فى دراسة نسخ من الانجيل أو التوراة وقد علق عليها نساخ أو مالكون للنسخ.

(٢) فى الفرنسية كتاب جدير بالتعريب فى مصر وغير مصر يلقى ضوءا على هذا العلم هو: Louis Havet, *Manuel de Critique Verbale*, Paris (Hachette) 1911

العربية لن يحسنوا النشر العلمي حتى يقفوا على هذا العلم وقوفاً دقيقاً ؛ فالأدباء العلماء والأساتذة المختصون أدركوا أن اللغة علم بيِّناً وأن الأدب علم بحضر ، وأن البحث فى هذا وذاك ليس من السليقة فى شىء وليس من الفطرة فى أمر ، ولا يدرك بالمران فحسب وإنما تجب له الطرق العلمية السليمة . ومرد شقائنا فى الشرق أننا فى كل ظروف حياتنا وألوان عيشنا نعرج على الفطرة ونعتمد على السليقة سواء فينا الممثل والموسيقى والمعلم والمتأدب ، فى كثير من الغرور الأعمى والاعتداد المسرف .

ولست أغلو حين أقول إننا لم نصنع كثيراً مما يعتمد على العلم فى نشر نصوصنا . وسأقتصر على مثلين اثنين هما فى كتابين لهما أثرهما وأهميتهما :

أولهما « كتاب الأغانى » ، يعاد طبعه منذ عام ١٩٢٧ ولم يخرج منه أبعد من الجزء الحادى عشر . وقد كان الظن أن ينتهى الجزء فى عام كامل على كثرة العاملين فى القسم الأدبى بدار الكتب المصرية . ولعل من الخير لأبى الفرج أن لا يفرج عن أجزائه الباقية قبل أن يجمع الناشرون مخطوطاته المتفرقة فى أطراف المكتبات العالمية ؛ فليس من الجد فى شىء أن يطبع هذا الكتاب العظيم على اثنى عشر مخطوطاً من مجموع ما فى المكتبة التيمورية ودار الكتب المصرية فى أقل من ثلاثين جزءاً . وأن يقتصر هذا على نسخ مصر وحدها فيصيب الجزء من الأغانى نسخة وبعض النسخة ، وفى أوربة أجزاء كثيرة منه (1) . فقد رأيت منها فى كوبنهاغ ، وفى برلين وفى باريس وليدن وروما . وهى قديمة فى أكثرها ، تصحح النص المتزعزع ، وتكمل الناقص ، وترد إلى الصواب(2) . وما فى الظن أن الفرصة بين الحربين الماضيتين لم تتح جمع هذه النسخ الثمينة ، فقد كان ورود النسخة آنذاك من كوبنهاغ إلى مصر أقرب من وصول مخطوطات القلعة إلى مكتبة باب الخلق .

وثانيهما « أبو العلاء المعرى » ؛ فقد حرم الرجل الجد فى حياته وحرمه بعد مماته ، فضاعت أكثر مؤلفاته ، وتفرق الباقى فى خزائن العواصم ؛ ولم يغن الناشرين الأفاضل القراءة والتعليق لأن مخطوطات الشراح الثلاثة التبريزى والبطليوسى والخوارزمى ونسخ المتن لسقط الزند فى مكتبات أوربة قديمة عتيقة أثرية على أكثرها شهادات وسماعات حال حد أبى العلاء دون استقصائها واستجلائها ، وقد رأيتها كذلك فى زيارتى الأخيرة لمكتبات أوربة منذ شهور ، فلم أصبر على تركها فى مخابئها كما صبرت على « الأغانى »

(١) سأذكر أماكن هذه الأجزاء وعددها فى العواصم من غير ذكر لأرقامها خوفاً من الاثقال ، فهى ستة أجزاء فى باريس ، وخمسة فى برلين ، وخمسة فى لندن ، واثنان فى كمبريدج ، وعدة أجزاء فى مونيخ ، وجزء فى كل من رومة ، وكوبنهاغ ، وفينة ، والاسكوريال ، والجزائر ، وغوطا . ذلك عدا نسخ استامبول فلم أرها حتى الآن ، وهى كثيرة .

(٢) نشرت مجلة *Z.D.M.G.* للمستشرقين الألمان فى المجلد الخمسين (ص ١٤٥ إلى ١٥١) مقالا للمستشرق فلهاوزن يكمل فيه الجزء الرابع عشر من الأغانى ؛ من طبعة مصر القديمة عدة صفحات ؛ ونشرت غيرها مثل هذا . فالأمل أن يسعى الناشرون إلى استيعاب هذا كله ، وسد النقص ورأب الصدع .

وإنما استلبتها من المكتبات على أفلام وصور ، وهأنذا أحملها إلى أصدقائى ناشرى أبى العلاء فأرد إلى قيصر ما لقيصر . راجياً أن يبسطوا فى ذيل طبعتهم ما فى النسخ المجلوبة من زيادات هامة وتصويب وتصحيح ، فهى تسبق لسخهم ستة قرون فى الوجود وتفضل عليها بالضبط ، وبذلك يقل الاشكال فى طبعتهم ، ويموت الشك فى صحة صنيعهم .

فليس من العلم فى شىء أن تقوم طبعة حديثة على احدى عشرة نسخة لثلاثة شراح ومتن ؛ وفى العالم منها ما يقرب من السبعين نسخة خطية فى المكتبات [1] .

وإذا كنت أبسط هذا للناشرين فانى إنما أقصد إلى أن النشر العلمى لا يتطلب الرجوع إلى القواميس فحسب أو إلى المراجع اللغوية ليس غير ، وإنما يتطلب الرجوع إلى التاريخ وعلم الخط والآثار وفن القراءة ، وذلك فيما أرى غريب على أكثر ما تخرجه مطابعنا ، حتى ليخيل إلى أن الناشر يعمد إلى مكتوبة صفراء يريدها مطبوعة بيضاء ليس غير ؛ يتصرف فى تصحيح النص كما يريده عقله ولغته وأسلوبه وفهمه فى القرن العشرين ضارباً بالأساليب العلمية عرض الحائط . وسبب ذلك فى رأيى أن أكثر النقد فى صحفنا لا ينظر فى الكتب المنشورة إلى أم النسخ وفروعها وشبيهاتها وعمر الناسخ وصلة صناعته بالعلم ، وإنما يعرض إلى فتحة سقطت فغدت كسرة ، وسكون انقلب فغدا ضما ، ونقطة عبثت على الرسم وتنقلت على الحروف فأصبح المعجم مهملا والمهمل معجما ، فيخص الناشر بكثير من الكرم فى اللوم وكثير من البسطة فى التعنيف ، ويرى أن ظلمه للنشر أكثر من رحمته فى الجهد . وقديماً ألف علماء العربية فى التصحيف والتحريف والأغاليط والاشكال كتباً كثيرة كالعسكرى والأصبهانى والصفدى والبصرى [2]

---

(١) عرض الناشرون فى مقدمة الجزء الأول (ص ط) إلى عدد النسخ التى بين أيديهم . وفى مقدمة الجزء الثانى وصفوا ما وصل إليهم من نسخ بعدها ، ولكنهم لم يعرضوا للاصول التى فى العالم على عادة النشر العلمى ، فلم يوازنوا بينها وبين نسخهم التى طبعوا عليها ، مع أن الفهارس ميسرة . فنحن هنا نذكر فى إيجاز عددها وأماكن وجودها عوناً لاخواننا ومشاركة فى إحياء آثار أبى العلاء .

ا) نسخ المتن ثلاثون : أربع فى برلين ، واثنتان فى باريس ، واثنتان فى مدريد ، وأربع فى أكسفورد ، وثلاث فى لندن ، ومثلها فى كوبرولى ، واثنتان فى الفاتيكان ، وأخرى فى الموصل ، وكوبنهاغ ، وليدن ، وكمبريدج ، وفينة .

ب) ونسخ التبريزى أربع عشرة : فى كوبنهاغ وليدن واكسفورد وليبزيغ وكمبريدج وفينة والموصل ولندن وكوبرولى وفيضى باستانبول .

ج) ونسخ الخوارزمى عشر : فى ليدن وبرلين ولننغراد وبيروت وأيا صوفيا ، ويكى جامع ، ونور عثمانية والموصل .

د) ونسخ البطليوسى ست : فى اكسفورد والاسكوريال وعاشرو وحامد وفاتح وأياصوفيا .

هـ) وضوء السقط أربع نسخ : فى لندن وباريس وليدن وكوبرولى .

فالأمل أن يرجع الناشرون إلى الفهارس فيصفوا هذه النسخ فى خاتمة طبعتهم .

(٢) وعناوين هذه الكتب هى : «شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف تأليف أبى أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى» و «التنبيه على حدوث التصحيف تأليف=

وأكثر هذه الكتب مخطوطات فى دار الكتب مصورة عن استانبول أو أصيلة فى المكتبات المصرية ، يستطيع القارىء أن يرجع إليها ، وأن يقرأ فيها : «أن التصحيف والتحريف قلما سلم منهما كبير ، أو نجا منهما ذو إتقان ولو رسخ فى العلم ... فقد صحف جماعة هم أئمة هذه الأمة ، وحرف كبار يدهم من هذه اللغة تصريف الأزمة[1] » ويقرأ عجباً كذلك فى باب « تصحيفات العلماء فى شعر القدماء[2] » فسيرى أن الخليل ، وأبا عمرو بن العلاء والسجستانى والأصمعى والأخفش والجاحظ والمفضل وابن سلام ، وحماد الراوية والفراء وثعلب وابن السكيت والمبرد ؛ وأن غيرهم من أعلام النحو واللغة قد ضلوا وأخطأوا ، فصرف المؤلفون حياتهم ستين عاماً أو سبعين فى تسقط أخطائهم وتلقط تصحيفهم واستيعاب تحريفهم ، فصرفوا العمر من غير جدوى ، وأنفقوا الحياة فى أعظم البلوى .

وما أرى كثرة الناقدين فى الأقطار العربية إلا مقلدين تقليداً أعمى لهؤلاء المؤلفين ، لا ينظرون إلا إلى الحروف كيف ضبطت وإلى الحركات كيف رسمت وإلى الكلمات كيف صورت . أفلم يعلموا أن هذا وحده مات مع الزمن ،وأن اللغة العربية تحتاج معه إلى هذا العلم الجديد لعلها تقف فى نشر نصوصها لما نشر الغربيون من آدابهم أو تنافس طبعات الغربيين لنفائسنا . فليس قليلا أن نحيا عيالا عليهم ،نسرق طبعاتهم ونشوه نظامها ، ونبتر مقدماتها ، ونحذف فهارسها ، ثم ندعى أننا وحدنا نضبط الحركات ونقوم الكلمات ونخدم العربية . والله أعلم بما نصنع وبما ندع ...

سامى الدهان

*

[هيئة التحرير] : ليس لنا على هذا المقال القيم للدكتور الأديب ، إلا ملاحظة واحدة يسيرة ، وهى أن علماءنا لم يخطئوا ولم يضلوا فيما بذلوا من جهد لاثبات ما تورط فيه الرواة والشراح ، من التصحيف والتحريف ونقده والدلالة عليه .

وكما أن عمل هؤلاء العلماء لم يغض ، ولا يمكن أن يغض من قدر الأئمة والرواة ، فعمل الذين يثبتون ما فى نشر النصوص حديثاً من تحريف أو تصحيف ، لا يغض ولا يمكن أن يغض من قدر العلماء الناشرين . والمستشرقون أنفسهم يأخذ بعضهم بعضاً بما يتورطون فيه من تحريف أو تصحيف . ويكفى أن يرجع الاستاذ إلى ملاحظات الأستاذ وليم مارسيه على نشر كتاب البخلاء الذى قام عليه فان فلوتن .

والانسان يخطئ ويصيب ، والعصمة لله وحده . ولم ينصح لك أحد كالذى يدلك على خطأ تخطئه أو غلط تتورط فيه . والمهم كل المهم هو أن ينسى العلماء أنفسهم ، ولا يذكروا إلا العلم وحده وما ينبغى لطلابه من التماس الحق والصدق والصواب.

= حمزة بن الحسن الأصبهانى» و «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف تأليف أبى الصفا خليل ابن أيبك الصفدى» و «التنبيهات على أغاليط الرواة لأبى القاسم على بن حمزة البصرى» .

(١) «تصحيح التصحيف للصفدى» الورقة الأولى من المخطوطة .

(٢) «التنبيه على حدوث التصحيف للأصبهانى» ص ٦٨ من المخطوطة .